الفصل الثانى

الوعى بالآخر ..

بين استحداث الوعى واستدعاء العداء

« اعرف عدوك » ...

شعار دولى وحق إنسانى ، لا يتنكر له أحد ، بل تحرص عليه الخلائق جميعاً ، الأفراد منهم والجماعات ، وإلا فَمن ينكر على الغير حق استخدام السلاح الأول للمحافظة على الذات ، والدفاع عن النفس ؟

والعداء عاطفة فطرية فى الإنسان - مع تعدد الدوافع - منذ خلق آدم وتصارع الأخوان ، ومنذ أن تحددت وترسمت معالم الخلاف ودوافع الصراع الأبدى بين الحق والباطل بصفة أساسية .

ولقد جاءت مشاركة إبليس وترأسه جيش الباطل إسهاماً أساسياً فى تفعيل المعركة : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١) .

ولم يكن مقام الخيرية لأمة النبى الخاتم محمد ﷺ بالشئ الهين حتى تُترك لتهنأ به ، ودون أن تُثار نوازع العداء جميعاً من وراثى ومتواصى الباطل وجنود إبليس ، بل حتى لم تسلم أمة الإسلام من عداوة أتباع شجرة النبوة الواحدة ، اكتفاءً بعداوة أهل الشرك والوثنية ، بل كوَّن الجميع حلفاً واحداً ولطالما اجتمعوا فى العداوة والحرب .

* *

---

(١) البقرة : ٣٦

ومن هنا كان الوعى بالآخر - بمن يحملون مشاعر العداء - ضرورة لأمة الإسلام ، فضلاً عن ضرورة استمرار فعاليات استحداث ذلك الوعى على الدوام ، وعلى وجه الخصوص حين تهزل الأمة وتصبح مطمعاً للآخر ، بتداعى الأمم عليها ، ومع إعلان تحول تلك العاطفة السلبية من العداوة والكراهية إلى معركة لاستئصال الوجود .

ومن هنا يجيئ دور روّاد النهضة وقادة الإصلاح .

* *

والحركة الإسلامية المعاصرة ، لم تألُ جهداً فى توعية الأمة ، وتبصيرها بالتيارات والقوى التى تتكالب عليها فى هذا القرن ، والتى جاءت مستغلة حالة الضعف والهوان التى أصابت الأمة ، واستهدفت استئصال ما تبقى من علائق بينها وبين عقيدتها .

ولقد جاء هذا الدور من الحركة الإسلامية كانطلاقة طبيعية ، ودفاعاً عن النفس والعرض والدين . وبدرجة أساسية ، انطلاقاً من الوعى القرآنى ، وتيقناً بآياته ونبوآته ، ثم استبصاراً لهذه النبوآت على أرض الواقع .

ولِمَ لا وقد خط الإنذار القرآنى معالم الوعى والحذر لدواعى العداوة والتربص ، التى تُكن لأمة الإسلام ، ثم ما هى تلك القوى والأمم التى تقف لها بالمرصاد ؟

وما بعد شهادة الخالق جَلَّ وعلا من شهادة ، وهو خير الشاهدين .

فها هو سبحانه قد أخبر بنفسه وأحاط علماً باستكانة هذه العداوة من حيث المبدأ : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾ (١) .

ثم كان من رعايته سبحانه أن أخبرنا بمعالم تلك العداوة ودوافعها ، وفى

---

(١) النساء : ٤٥

مواضع مختلفة من كتابه العزيز : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّن خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (١) .

﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَواْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ (٤) .

هذا عن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، أما عن المنافقين فقد جاءت شهادة الله فيهم : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَواْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٥) .

* *

وهذا هو وجه القضية - الوعى بالآخر - على وجه الإجمال ، كحق وكمبدأ مشروع ، وكانطلاقة واجبة لدعاة الإسلام من حيث ضرورة تنبيه الأمة ، واستيفاء مقوِّمات الوعى بمصدر الأخطار التى تتهددها .

وتبقى القضية بعد ذلك بحاجة لشئ من التفصيل ، وإلى استكمال المضامين والضوابط التى تضبط التعامل مع هذه الحقيقة ، ومما لا يجعلها تميل مع الهوى أو تذرها كالمعلقة ، يتعامل معها كل بطريقته .

---

(١) البقرة : ١٠٥ (٢) آل عمران : ١١٩ (٣) البقرة : ١٢٠

(٤) البقرة : ٢١٧ (٥) البقرة : ١٤

ومن خلال الاستدلال بهَدْى القرآن والإسلام عامة ، نجد أن هناك جملة من هذه الضوابط ، نحاول التعرف عليها كالتالى ، ومنها :

أولاً - طريق الاستدلال على عداوة الآخرين :

إنَّ رمى أى فريق أو جماعة أو حتى فرد بأية تهمة لم يجعله الشارع باباً مفتوحاً تُستباح منه الأعراض وتضرب فيه الظنون ، وتنقاد الأنفس وراء الشائعات ، أو تتبعاً لنبإ من فاسق . بل أوجب التحقق والتبين ، والبحث والتحرى وتجميع الشواهد ومقابلة الأدلة وتحليلها وبتجرد من نوازع الهوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (١) .

« إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » (٢) .

إنَّ خطورة إعلان عداوة فريق أو ارتداد آخر ، أو عمالة أحد من الناس ، أو محاربة طائفة أو للإسلام ، خطورة أية خطورة ، لما سيترتب عليها من أحكام ومواقف ، وسواء أكانت هذه الآحاد من الناس أو الجماعات من بين المسلمين ، أو من خارجهم ، مع خطورة الوضع أكثر فى حالة الفريق الأول . ولذلك وجب ذلك التحرى فى البحث والشهادة على الآخرين .

إنَّ الخطورة التى تهمنا فى هذا الشأن ، هو مدى ما سترتب على أخذ هذا الموقف غير المحقق من الآخرين ، ومن تحريك العداوة والضغينة ، وتجسد لتهمة لم تكن من قبل ، واستدعاء المنصرف وتحريك الساكن ، وانتصار تدخل الشيطان .

*

---

(١) الحجرات : ٦ (٢) رواه مسلم .

ثانياً - خطورة التعميم :

عندما حدَّثنا القرآن محذراً من الأمم والفِرَق التى تكن العداوة للإسلام والمسلمين ، ظهرت غاية الدقة فى استخدام الألفاظ ، ومراعاة النسب ، واختلاف درجات العداوة .

فلم تأت الألفاظ مطلقة تفيد مطلق تعميمها ، على الأقوام والجماعات ، أو تفيد تساوى درجات العداوة ومنطلقاتها ، على كل فرقة على حدة .

وهذا يعتبر أعلى درجات الدقة والأمانة ، ومما يعطى ذلك الأثر المنضبط أيضاً على حركة رد الفعل .

فنرى ذلك واضح البيان من أقواله تعالى فى مواضع كثيرة ومتفرقة فى كتابه العزيز :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾ (١) .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٢) .

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ، مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ٧٥ (٢) البقرة : ١٠٩ (٣) آل عمران : ٦٩

(٤) آل عمران : ١١٣ (٥) المائدة : ١٣

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىٰ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١) .

ومع اختلاف العلماء فى كون هذه الآيات وردت لأسباب خاصة ، أو أن العبرة فى ورودها بعموم اللفظ ، ثم مع كون أغلب الأقوال مع الرأى الأول ، إلا أننا هنا يهمنا - بالدرجة الأولى - هذه الدقة فى التحقيق ، مما قد يؤدى إلى الاستشكال على البعض وكما رأينا بين العلماء ، فضلاً عن القارئ العادى ، ثم درس آخر فى عدم إطلاق الأحكام أو التعميم فى الاتهام ، وذلك أدب عال وأسلوب قرآنى تربوى ، حرى بنا أن نتعامل به فى تقييم الأمم والفرق المعاصرة فضلاً عن الأفراد ، وإلا فما العائد على الدعاة والحركات الإسلامية من تعميم إطلاق الاتهامات وتوزيع الأحكام ، وعلى سبيل المثال : إطلاق الألفاظ فى :

الطاغوتية والعمالة على جميع الحكام العرب والمسلمين .

أن النصارى كلهم محاربون ، منصِّرون .

كفر وارتداد جميع العلمانيين .

الرِدَّة العامة على المجتمعات الإسلامية .

عداوة وإعلان الحرب من الشرق والغرب قاطبة على الإسلام .

وإذا كان الأمر كذلك فمع مَن سنتعامل إذن أو إلى مَن نتحرك ومن خلال مَن ؟

إننا عندما لا ندقق فى الحكم ، فسيرتد إلى صدورنا ولا شك ما حكمنا به ، وستثار عداوة الكل على دعاة الإسلام ، فضلاً عن إثارة الشكوك والمخاوف حول أى مشروع إسلامى .

وعندما نفتح باب الاستثناء فى الأحكام وهى على الحقيقة فى أكثر الأحوال ،

---

(١) المائدة : ٨٢

كأننا فتحنا باباً للخير ، أو فتحناه لكل مَن يفكر فى التوبة ، وهيئناه لمن ينوى الحياد . فضلاً عن ذلك سيسهل على الدعاة الحركة ويفتح لهم الآذان .

وإذا لم يكن بوسعنا أن لا تعمم من باب التعامل مع الحقائق ، فبوسعنا أن نتعلم شيئاً من الحكمة ، أو الديبلوماسية ، أو استراتيجية عدم إدارة المعارك مع جميع الأعداء دفعة واحدة [١] ، وقبل أن لا يكون لأهل الدعوة حول ولا قوة .

*

● شئ من الديبلوماسية من الأمريكان :

لقد أصبح من حكم المعلوم أن الموقف العملى لدولة أمريكا فى العقود المتأخرة ، لا يخفى قدراً مبيَّتاً من النوايا السيئة للحركات الإسلامية ، أو كما يطلقون عليها « الأصولية » . هذا إن لم يحمل ذلك الموقف على الإسلام وجه العموم ، ولكن عندما اضطرت أمريكا لأن تعلن موقفها الرسمى من الأصولية الإسلامية ، وكأنها شاءت أن تلقن الحركات الإسلامية - فضلاً عن حكومات العالَم الإسلامى - درساً فى عدم التعميم ، وإن شئت شيئاً من تلك الديبلوماسية .

فماذا أعلنت الحكومة الأمريكية فى موقفها الرسمى من هذه القضية الحساسة ، وهى على تلك المكانة الدولية ، ومما لا يحاسبها عليه أحد ؟

لقد أعلنت المتحدثة باسم الخارجية الأمريكية « مارجريت تاتويلر » :

١ - « أنّ استخدام تعبير « الأصولية » يتم بصور ومفاهيم مختلفة ، وهو يعنى عدة مفاهيم دينية وسياسية واجتماعية ولا يمكن وصف تلك الاتجاهات بأنها أصولية وما ينطبق على مجتمع يختلف عن مجتمع آخر .

٢ - أن الولايات المتحدة لها علاقات ممتازة مع عدد من الدول الإسلامية أو الدول التى تلتزم بالدين الإسلامى وتحترمه وسوف تستمر هذه العلاقات » [٢] .

فهل لنا أن نتعلم شيئاً من الحكمة ، ولا سيما وهى ضالة المؤمن .... ؟

*

---

(١) يرى بعض مؤرخى السيرة أن تطور موقف الرسول ﷺ مع اليهود والنصارى فى بداية الدعوة كان مراعياً لهذا المبدأ .

(٢) الأهرام فى ١٣ يناير ١٩٩٢

ثالثاً - التعامل مع الظاهرة :

كيف عسانا أن نتعامل مع مظاهر العداء والاستفزاز ، من مثل : محاولات التنصير فى ديار المسلمين ، ومع ما يشاع من مخططات الاستيعاب والسيطرة

إن مدار الأمر مرتبط ارتباطاً كبيراً بما يكون عليه أهل الدعوة من القوة والقدرة والتأثير فى الدوائر الشعبية ودوائر صنع القرار من ناحية ، ومن ناحية أخرى على موقف السلطان ودرجة غيرته على الدعوة وأهلها .

وما عدا ذلك ، فيأتى قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [1] ، أصلاً فى وضع كالذى تعيشه الدعوة والدعاة اليوم .

ومع أن علماء التفسير قالوا بنسخ هذه الآية بآيات القتال بسورة التوبة ، فإن البعض يرى بأن الحكم يدور مع العِلّة ، فالأصل العمل بالصفح والعفو إلى حين القدرة والنصر .

يقول صاحب المنار فى هذه الآية : « ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة ، دلّهم على بعض وسائل تحقيقه ، كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة » [2] .

إن كثيراً من شباب الحركات الإسلامية وممن ليس لهم حَوْل ولا قوّة ، فضلاً عن دائرة السلطان لا تنتصر لدعوتهم ، فضلاً عن رفعها سلاح الوحدة الوطنية فى وجه شعاراتهم ، هؤلاء ، لا يروق لهم الأخذ بالصبر أو الصفح أو بالعفو ،

---

(١) البقرة : ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا .

وبالتالى فلا بد من رد الكيل كيلين . ونجحت بذلك مخططات الإيقاع بالحركات الإسلامية فى مستنقع الفتنة الطائفية وبدون أن يسكبوا شيئاً واحداً فى صالح قضيتهم الأساسية ولا حتى الفرعية ، والأمثلة على ذلك كثير ، ومن النماذج المتكررة دائماً أن يأتى - على سبيل المثال - شاب نصرانى يشتبك أو يستفز شاباً مسلماً فى الجامعة أو الشارع تحت أى مبرر ، فيتعاركان ، فتعلن الجماعة الإسلامية الحرب ، لتثور ثائرة المسلمين ، ولتتحول حالة نزاع فردية شخصية -وعلى أكثر الاحتمالات تكون استفزازية - تتحول هذه إلى قضية كبرى ، تستجلب القوات المركزية ، ثم الإعلام العالمى الذى ينثر الدموع على الأقلية المعززة بسيف المعز ، وتنتهى الزوبعة ، ولا يصاب النصارى بأكثر مما يناله المسلمون والقضية الإسلامية على وجه سواء . هذا مع أنه كان بالإمكان تحويل القضية إلى محاكم الدولة لتحكم فيها ، ولكن - وللأسف - لتصبح القضية ، قضية عزة وإثبات وجود .

*

رابعاً - القضية أكبر من إثبات الوجود :

عندما بايع الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية وقد بلغوا السبعين ، حدث موقفان مهمان ، يُستحب أن نستحضرهما فى هذا الباب :

الموقف الأول : « عندما تمّ إبرام البيعة وكانوا على وشك الانصراف ، وقد أحس بهم أحد كفار قريش فى آخر لحظة ، وما كان أمامه إلا أن صاح فى قومه من على مرتفع : يا أهل الأخاشب (المنازل) ؛ هل لكم فى محمد والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟ وقبل أن يفضهم رسول الله ﷺ إلى رحالهم ، وضع المبايعون أيديهم على مقابض السيوف ليستلوها من أغمادها أمام هذا النداء قائلين : لئن شئتَ يا رسول الله لنميلن غداً على أهل منَى بأسيافنا . ويأتى الجواب النبوى الحكيم : « لم نؤمر بذلك ولكن ارفضوا إلى رحالكم » [1] .

---

(١) من المنهج الحركى للسيرة : منير الغضبان (بتصرف) .

القضية إذاً ليست إثبات الوجود ، والاستجابة إلى أى استفزاز ، أو ردّة فعل ، ومن ثَمّ الاستعراض بحجم الأتباع .

الموقف الثانى : « عندما تأكد لدى زعماء مكة خبر إتمام البيعة ، وأسرعوا فى مطاردة حجيج يثرب ، لم يتمكنوا إلا بالإمساك والقبض على سعد بن عبادة ، واقتادوه مكبلاً وانهالوا عليه ضرباً ، فهل تدخل المسلمون أو رسول اللّه ﷺ لحمايته أو تخليصه ؟ لا لم يكن ذلك ، ولم يتدخل أحد لحمايته أو إطلاق صراحه ، فلقد كانت الضرورة أن لا تُكتشف البيعة ، والتى سيؤكدها التدخل ، ومرّ هذا الحدث الفردى ولم ينقذ سعد إلا قوانين وأعراف الجاهلية ، وحين جاء المطعم بن عدى والحارث بن أمية وخلّصاه من أيديهم ، إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما بالمدينة » [1] . وهكذا حينما تُضبط العواطف ، وتكون رؤيا المستقبل واضحة ، تتحرك مسيرة الدعوة غير عابئة بالاستفزازات أو تتعجل تحقيق المكاسب غير المؤكدة .

*

خامساً - بعيداً عن الإثارة وتقدير المكاسب :

عندما همّ المسلمون بعض الوقت يسبون أصنام الكفر ، فيسب الكفار اللّه ، فأنزل اللّه قوله : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [2] .

وقد رد صاحب تفسير المنار - على استشكال بعضهم النهى ، بما ورد فى الكتاب العزيز من وصف آلهتهم بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تقرّب ولا تشفع ، وأنها هى وإياهم حصب جهنم ، وتسميتها بالطاغوت وهو مبالغة من الطغيان ، وجعل عبادتهم طاعة للشيطان فقال : « وقد يُجاب عنه بأن هذا لا يسمى سباً ، وإن زعموه جدلاً ، لأن السب والشتم هو ما يُقصد به الإهانة والتعبير ، والغرض

---

(١) من المنهج الحركى للسيرة : منير الغضبان (بتصرف) .

(٢) الأنعام : ١٠٨

من ذكر معبوداتهم بذلك بيان الحقائق ، والتنفير من الخرافات والمفاسد ، وأجيب على تقدير التسليم ، بأن ما يستحق جائز فى نفسه ، وإنما يُحظر إذا أدى إلى مفسدة أكبر منه ، والحال هنا كذلك . ومن الاستشكال أيضاً قول آخر وهو : كيف نهانا الله تعالى عن سب مَن يستحق السب لئلا يُسب مَن لا يستحقه ، وقد أمرنا بقتالهم وإذا قاتلناهم قتلونا وقتل المؤمن بغير حق منكر ؟ ..... وأجاب عنه الشيخ بأن سب الآلهة مباح غير مرفوض وقتالهم فرض ، وما كان مباحاً ينهى عما يتولد عنه ويحدث ، وما كان فرضاً لا ينهى عما يتولد عنه .. وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا من فروع نفس المسألة : على أن إطلاق لفظ الكافر قد يكون حق على الملاحدة المنكرين لوجود الله عَزَّ وجَلَّ ، ولكن من هذا الباب يعتبر إطلاقه على كل متدين سباً وإهانة ، فيترتب على هذا أن إطلاقه على من يحرم إيذاؤه من أهل الأديان محرَّم شرعاً إذا تأذى به ولا سيما فى الخطاب . وذكر الشيخ شاهداً على ذلك من فتاوى الحنفية وهو فى « معين الأحكام » قال : إذا شتم الذمى يعزر لأنه ارتكب معصية . وفيه نقلا عن « الغنية » : ولو قال للذمى : يا كافر ، يأثم إن شق عليه » [1] ... انتهى .

وكما كان السباب من أساليب الإثارة ، وقد ورد فيه النهى لما يتبعها من مفاسد أكبر ، فما بالك بأساليب التهديد والتصريحات التى تستفز وتثير الأحقاد والضغائن ، وكل ما يقال تحت باب الاستعداء .

وهناك من الأمثلة التى تؤاخذ على ممارسات بعض رموز الحركات الإسلامية ، وخاصة الشباب المتحمس منهم ، بدءاً من الشعارات والهتافات التى يهتف بها فى الساحات ، وعلى الأشهاد ، خذ على سبيل المثال ذلك الهتاف وهو جزء من عدة مقاطع يُختم بـ :

« فليَعُـد للدين مجده أو تُـرَق فيها الدماء »

فأى دماء إذن ، والكلام موجّه لمن ؟

---

(١) تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا - الجزء السابع .

نفس الشئ ، وعلى سبيل التصريحات ، التى أحياناً تأتى بدافع الحماس ، أو إغراء ظروف المناسبة للقائل ، وعندما يصبح على جانب من القوة ، فيُطلِق العنان لنفسه ، ولا يدرى أن العالَم كله يرصد سقطات اللسان ، لا حقيقة المواقف والمبادئ .

وكثير منا يذكر آثار ذلك التصريح الذى أُطلِق فى غمرة الفرحة بالفوز من أحد خطباء الحركة الإسلامية فى الجزائر ، عقب فوز جبهة الإنقاذ فى الانتخابات البرلمانية وتهيئها لاستلام السلطة ، أو هكذا كان الظن ، وحيث دعا ذلك الخطيب جماهير الجزائر للاستعداد لتغيير عاداتهم فى اللباس والشراب ... وهكذا ، ونذكر كم استُغِل ذلك التصريح فى تهييج الرأى العام . ومن المفيد القول هنا بأنه إذا كانت هناك قناعة بأن الآخرين يُبيِّتون أمراً بليل بغض النظر عن أفعالنا ، فهل يصبح ذلك مسوغاً لكى يُعطوا الفرصة للانقضاض .

إننا أصبحنا فى حاجة ملحة الآن لأن نراجع رصيد العمل الإسلامى فى الاستعداء ، ومن ثَمَّ إخضاع تراث القادة والزعماء والموجهين فضلاً عن خطباء المنابر لتلك المراجعة .

وأعتقد أننا لو قمنا بذلك ومع استحضار الدوافع الزمنية لكل منها لوجدنا أن أغلب هذا التراث كان واقعاً تحت تأثير استجداء الحماس الجماهيرى ، لا تحت تأثير دوافع الحكمة والمصلحة وللرؤية المستقبلية .

ولنا أن نتساءل : إلى أى مدى تتأثر قرارات القادة والدعاة وحاجتها لتأجيج حماس ومشاعر الجماهير ومَن يقود الآخر ؟؟

ثم لنا بعد ذلك استحضار درس الحديبية وكم ضبطت الحكمة النبوية حماسَ وغضب الأتباع .

*

سادساً - الوقاية وتحصين الذات خير من العلاج والاستعداء :

إن التعامل السليم ليس فى استثارة ذلك الآخر ، الذى يكن لك شعوراً عدوانياً ، ثم استعراض القوة أمامه ، وخاصة إن كنت لا تملك مقوماتها ، وليس كذلك ، بالمسارعة والتزلف إليه والتذلل لكسب وده ، واسترضائه بدون مبرر ، وكمن أنكر عليهم القرآن : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [1] ، وإنما يرتبط ذلك بمدى القدرة على الانضباط وفق المبادئ التى يدعى إليها من ناحية ، وبمدى استشعار مسئولية حمل الدعوة وأهمية التأثير فى الخصم وبما يحمله على الإيمان بالدعوة أولاً وقبل كل شئ من ناحية أخرى ، وليس مجرد إشعاره بمدى القدرة على المنافسة لاستحواذ سلطان ما والحاجة إلى الانتصار عليه ، ثم بمدى القدرة كذلك على تبرئة ساحة الخصام من مبررات ضعيفة ، يضعف أمامها الخصم ومما يدفعه على الاستمرار فى العناد والعداوة . وذلك من خلال عدة أساليب ، فمن خلال استيفاء أسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تارة ، ثم من خلال الدفع الحسن تارة أخرى ، كذلك ، من خلال منح مساحة للحوار والجدال الحسن لتصفية الحجج والشبهات فضلاً عن الظنون .

وأهم من ذلك ، وفى خط متواز ، امتلاك وسائل القوة الذاتية ، وتحصين الذات ضد مداخل الاختراق ، وهذا الأخير هو ما أفاض فيه القرآن ووفى تنبيهاً وتحذيراً .

والدليل على ذلك ومما أفاض به القرآن فضلاً عن السُنَّة ، وسنكتفى هنا بالاستشهاد بالنصوص القرآنية الدالة على بعض من آفاق التعامل والحذر مع الآخر :

---

(١) المائدة : ٥٢

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

﴿ وَلا تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ، وَقُولُواْ آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٤) .

ثم أخيراً وهو الأهم فى هذا الباب : ﴿ وَلا تُؤْمِنُواْ إِلا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ... ﴾ (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ... ﴾ (٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم

(١) النحل : ١٢٥ (٢) العنكبوت : ٤٦ (٣) آل عمران : ٦٤
(٤) فصلت : ٣٤ (٥) آل عمران : ٧٣ (٦) آل عمران : ١٠٠
(٧) آل عمران : ١١٨

مُؤْمنينَ * وَإذَا نَادَيْتُمْ إلَى الصَّلاة اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعباً ، ذَلكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكتَابِ هَلْ تَنقمُونَ منَّا إلَّا أنْ آمَنَّا بِاللَّه وَمَا أُنزلَ إلَيْنَا وَمَا أُنزلَ من قَبْلُ وَأنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسقُونَ ﴾ (١) .

القضية إذاً باتت فى أرض المسلمين ، والجهد إذاً والحماس يجب أن يتجه إلى مجتمع المسلمين ، وفى اتجاه تحصين المجتمع المسلم بالإيمان والوعى بدينه ثم بالآخر . وأن ذلك هو الأساس وليس بفتح الجبهات ومن خلال استدعاء عداء العالَم من حولنا ، ونحن بعد دون المواجهة ، وعندما يحصن المجتمع المسلم حق التحصين ، وبأداء ما علينا نحو ذلك ، سيتحول فعل الآخر المعادى إلى لا شئ ، إن لم يرتد سيفه إلى نحره ، بإصراره على الكيد الخبيث ، وبعدم إصغائه لنداء الهدى وداعى الإيمان والرشاد . وعندئذ سيتحقق قول الله سبحانه ووعده ، وستتضاءل خطورة الآخر إلى أن تؤول إلى الصفر .

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إلَّا أذىً ، وَإن يُقَاتلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقفُوا إلَّا بَحَبْلٍ مِّنَ اللَّه وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاس وَبَاءُو بغَضَبٍ مِّنَ اللَّه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَلكَ بأنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآيَات اللَّه وَيَقْتُلُونَ الأَنبيَاءَ بغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلكَ بمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اصْبرُوا وَصَابرُوا وَرَابطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ، مِّنْهُمُ الْمُؤْمنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسقُونَ ﴾ (٤) .

* * *

(١) المائدة : ٥٧ - ٥٩
(٢) آل عمران : ١١١ - ١١٢
(٣) آل عمران : ٢٠٠
(٤) آل عمران : ١١٠